obeikan.com

obeikan.com

سيم الطوائف

وإذا كنا قد أوضحنا فى الحديث السابق أن هناك ملاحن تعتمد على الفطنة ، وغيرها رمزية وشفرية تستند إلى التواطؤ. فإن شكلًا ثالثًا من اللحن أو السيم له قاعدة أو شبه قاعدة ، لأنه يأتي في شكل مصطلحات ذات دلالات ثابتة ، فإذا عرف المرء معنى المصطلح فطن إلى مضمون السيم .

وهناك طوائف في المجتمع لها لغاتها السرية التي يتخاطبون بها ، ويتفاهمون مع بعضهم البعض بواسطتها ، تخفى أسرارها على غيرهم من سامعيها ، ومن يخالط طائفة ، وتطول مخالطته بهم لا يجد صعوبة فى تفهم لغتهم لأنها على وضع ثابت ، إذا لا يغيرون مصطلحاتهم بين وقت وآخر، ومن هنا لكل طائفة وبخاصة طوائف الحرفيين معجمها الخاص بها ، فإذا أمكن جمع مفردات هذا المعجم ، وتفهم معانى مصطلحاته ، صارت اللغة المعماة مكشوفة معروفة .

وهناك من جمع عددًا كبيرًا من مصطلحات عديد من الطوائف ، وصارت بمنزلة معجم صغير يمكن الرجوع إليه للتعرف على معانى مصطلحات الحرفيين مثل ما فعله محمد لطفي جمعة عند ما جمع «قاموس ملاحن السوقة»[1] . ، ولأن لحن الطوائف الحرفية على وضع ثابت فإنه من الممكن للدارس والمتابع معرفة لفظ «أفقس» عند الجواهرجية بمعنى: اصرف الزبون ، و«الحوة» عند العوالم بمعنى الفلوس ، والزيتون عند تجار المخدرات بمعنى الأفيون ، وهكذا لم يعد السيم بعد معرفة معنى المصطلح في حاجة إلى فطنة شديدة، أو إلى جهد خارق لحل شفرته وقد يقول قائل : إن لغة الطوائف هي أيضًا نتيجة تواطؤ واتفاق ورموز بين أبناء كل طائفة ، وربما يكون هذا صحيحًا ، ولكن هذه اللغات السرية صارت موروثًا شعبيًا أو «فلكلور» له صفة الثبات والرسوخ، فمنجد هذه الأيام الذي ينطق بسيم المنجدين لا يعرف قطعا من الذى ابتدع المصطلحات التى يردد ها، أما الرسوم التى يستخدمها الجواسيس واللصوص فإنها يمكن أن تتغير فترة بعد أخرى، ومن هنا لا تتسم بالثبات وليست على قاعدة أو شبه قاعدة ، كما

(١) محمد لطفي جمعة كتاب «مباحث في الفلكلور» صدر عن «عالم الكتب ١٩٩٩ ، وعن هيئة قصور الثقافة ١٩٩٩.

أن لصوص مكان قد تكون لهم رسوم ورموز تختلف عن رسوم ورموز لصوص آخرين في مكان مجاور؛ لأنهم هم الذين يتفقون فيما بينهم على أشكال الرسوم ودلالاتها، وعلى أية حال فإن ملاحن الطوائف الحرفية اتسمت مصطلحاتها بالثبات، أما الرسوم والأصوات والكتابة على الورق بالطرق الخفية، فمتغيرة، ومن هنا فإنه بعد جهد يفهم سيم الحرفيين، أما ما عداه فمستغلق مبهم عليه.

نشأة اللحن:

ولا يمكن التكهن بزمن نشأة سيم الطوائف ، ولا بكيفية تكوينه ، وما يمكن تخيله أنه نشأت لغة ، عبر الزمن ، بين أبناء كل طائفة استوحت مفرداتها من طبيعة الحرفة التي تزاولها، ثم أضيفت إليها كلمات دخيلة نتيجة احتكاك أبناء طائفة بغيرهم. وهذه الكلمات الجديدة رمزوا بها لأشياء فى مهنتهم أو تتصل بها ، ونتيجة الممارسات العملية جرى تغيير وتبديل وتحريف في معجم كل طائفة حتى استقرت أو كادت تستقر على حال .

فإذا نظرت في لحن الحشاشين وتجار المخدرات ، حسب قاموس لطفي جمعة ، تجد لحنهم يلائم سلوكهم ومهنتهم ، فالأخضر هو الحشيش ، والأسود هو الأفيون ، وحجر أى جوزة ، وفص ، قطعة حشيش ، يرص ويصف ، أى يضع قطع الحشيش فى الحجر ويغمرها بقطع النار.

وفى سيم اللصوص والنشالين تجد كلمات أصيلة مثل : افتح، امسك ، حبل ، الصندوق ، هجام ، وهذا وذاك مستمد أو مستوحى من الحرفة ، وهو كلام عربي فصيح في معظمه مالوا ببعضه عن معناه ، ولكن لحنهم شكّل كلمات أخرى لمزيد من التعمية والإخفاء.

ولمحمد لطفى جمعة رأى في كيفية نشأة اللحن يجدر بنا أن نذكره هنا يقول : «يوجد اللحن أو الأرغوت حيث توجد جماعة مهما صغر حجمها أو قل عددها ما دام أفرادها قد اجتمعوا لمدة ما بأى رابطة كانت حبا أو صداقة أو بغضا أو غاية جنائية أو شهوانية مادامت هذه الجماعة تشعر بالاحتياج للتفاهم فيما بين أفرادها بدون اطلاع الغير على أسرارها[1].

(١) محمد لطفي جمعة – مصدر سابق.

ورأي لطفى جمعة صحيح في عمومه ، ولكن ليست كل الجماعات تتحاور باللحن لتخفى أسرارها ، ولا أنكر أن الجماعات الشريرة في المجتمع مثل اللصوص وتجار المخدرات والنصابين علاوة على العشاق ينبغي لهم أن يحافظوا على أسرارهم ، ويضعوا لحنا يقيهم من أعدائهم ، أما الطوائف الأخرى مثل الخيامية والعوالم والموسيقيين والنجارين والمعمارين إلى أخره فإنه باستثناء كلمات قليلة خادشة للحياء، لا يوجد فى لحنهم أسرار يخشى عليها وأنهم لو تحدثوا اللهجة العامية العادية لم يخسروا شيئًا من تلك الأسرار، لذلك أرى أن سيم الجماعات الشريرة لم يستغرق وقتا طويلا في تكوينه لاحتياجهم الشديد إليه ، كما أن ألفاظهم المعمّاة والدخيلة والمجهولة أكثر من ألفاظهم المفهومة وذلك لخدمة أغراضهم الخسيسة.

ويمكن التأكد من هذا لو نظرنا في لحن القماحين الذي يخلو من أي سر. يقول لطفى جمعة فى قاموسه :

اشكح : قمحة مليحة ، بوهى: قمحة رديئة ، دبانة : طينة تختلط بالقمح ، عود: سمسرة ، عليها نقص كتير: أى الغلة كثيرة الطين ، فأش : قمحة رديئة ، الناعمة على القمحة : أى عليها تراب ، واحدة على القمحة: القمح مسوس .

هذا كل ما جاء فى لحن القماحين ، فأية أسرار يمكن أن يحافظ عليها أصحاب هذه المهنة أو أرباب هذا اللحن ، إنهم لو تحدثوا اللهجة العادية لما تغير فى الأمر شيء، واللحن ما لم يخف سرًا ، ويرمز إلى شيء مهم فلا قيمة له ، والفلاح العادى يقول هذه القمحة رديئة وفيها سوسة ، وفيها طينة دون حاجة إلى قول : اشكح . وبوهى وفأش .

ويذهب لطفى جمعة فى الفصل الذى كتبه عن « الملاحن أو اللغات السرية» إلى أن كل جماعة متشابهة تشعر بعاطفة عداء للجماعات الأخرى وترغب فى الاحتماء من شرها وبغضائها»، ويؤكد هذا في مكان آخر فيقول: «إن اللحن هو لغة خاصة ووجدت وبقيت بقصد أن تكون سرية ، ومنشأها روح العداء بين الطبقات وروح الخوف الذي يوحى بها، وغايتها حماية فريق ضد فريق».(١)

وهو كلام لا يصدق على طول الخط، وجميل إنه لا يصدق لأنه لو صدق لكان المجتمع المصري مثلا في حالة عراك وعداء ذلك أن المجتمع هو مجموعة طوائف أو جماعات، فإذا كانت كل الجماعات تشعر بخوف وعداء من بعضها البعض، فإننا سنكون على أبوب حرب أهلية.

(١) المصدر السابق

إن الجماعات التي تشعر بعداء الآخرين لها هي الجماعات الشريرة التي تلحق الأذى بالناس وأفراد طوائفهم هم الخائفون من السلطة والقانون ، وهم الذين يعيشون في حذر من سائر طوائف الشعب لأنهم ضد أمن المجتمع، أما الآلاتية والطباخين والقفاصين مثلًا، وقد أورد لهم لطفي جمعة ملاحن في قاموسه، فأي عداء بينهم وبين سائر طوائف المجتمع الأخرى؟ وما الذي يجعل القفاصين مثلا يدخلون فى عداء مع بقية الجماعات ؟ وما الذي يجعل كل الجماعات تخشاهم ؟ وهم لا هنا ولا هناك . ولم يكن جمعة دقيقا فى قوله : إن روح العداء بين الطبقات وراء نشأة اللحن وبقائه ، والحقيقة أنه ليس هناك عداء بين كل الطوائف ، وقد يكون الغرض من اللحن مجرد حجب الأسرار عن الآخرين ، وهناك جماعات مثل الطباخين لهم لحن لا ينطوي على أي عداء لأحد ، ولحنهم مجرد كلمات لا تخفى شيئًا مهما، ومثل هذه اللغات التي تخفى سرًا خطيرًا يمكن أن نعدها لغة مهنية وليست لحنا. أو لغة اعتادوا أن يتحدثوا بها هكذا .

أصول اللحن:

وأصول اللحن كثيرة ، وروافده متنوعة ، فبعض كلامه يأتي من إبدال الحروف ، وبعضه يأتي بالتصحيف ، ومن ذلك أن المعتمد ابن عباد لقى امرأة متبرجة في حي الجيارين (صناع الجير) بأشبيلية ، فالتفت إلى ابن عمار وقال له: «الجيادين» ففهم ابن عمار قصده وهو «الحيا زين» وخفى هذا على الآخرين الذين كانوا مع المعتمد ، والمعنى أن المرأة لو كانت على حياء لاحتشمت ، ومما يشبه التصحيف كلمة «حسيس» ، أى حشيش فى لحن الحشاشين ، حذفت نقاط الشين .

وللطفي جمعة قاموس عن ملاحن الحرفيين سوف نعتمد عليه في تفسير لغاتهم والبحث عن أصول اصطلاحاتهم .

ومن قراءة هذا القاموس ، الذي اقتصر على ذكر الكلمة ومعناها ، ندرك أن اللغة العربية الفصحى مصدر لسيم الطوائف . فالمنجدون مثلًا يستخدمون فى لحنهم أسلوب تعجب بنطق مختلف مثل قولهم : الكستبان المأكبر مأحلى (بكسر لام مأحلى) ، والعبارة تعني أن الرجل صاحب العمل طيب أو حلو المعاملة، وكلمة «مأحلى» هي « ما أحلى» ونفس الشيء يقال عن «مأكبر» و «مأصغر» تطلق الأولى على

الرجل الكبير ، والثانية على ابنه الصغير، ومثلها «مأكتر» أى ما أكثر. وقولهم: «الفمو» مأكتر أي: ما أكثر القطن . ولكن هذا لا ينطبق على طوائف أخرى ، وقول المنجد: «ربص» في عبارته «الكستبان ربص» أي الرجل حضر وجلس أو «الإبرة ربصت» أي : المرأة حضرت وجلست ، فإن ذلك من الفصحى، وقد استخدمها المنجدون بمعناها الحقيقي، ففي كتب اللغة «ربص فى المكان» لبث ، و «التربص» ، «المكث والانتظار» .

ويستخدم المتسولون كلمة أجدى بمعنى أتسول ، وفي الفصحى أجداه أعطاه ، وجدوته واستجديته واجتديته أي سألته ، فأجدى لها أصل فصيح قريب.

ومن ذلك قول النصابين عن الزبون الجيد « فخم» ، والفخم فى الفصحى هو الجزل . وجيد تدخل ضمن معاني الفخم .

ويطلق المتسولون كلمة بصاص على المتسول الذي يراقب الطريق ، وبصاص صيغة مبالغة ، وبص تأتى بمعنى برق ، وتسمى العين بصاصة لأنها تبص أي تبرق ، والبصاص هو الذي ينظر ما يؤمر به ، وكان البصاص فى زمن تولّى يقوم بعمل المراقبة والتجسس.

وهذا يبين أن قسما من مفردات معجم الطوائف فصيح أو له أصول عربية فصيحة .

وأحيانا تعبر هذه الطوائف بالجزء عن الكل، في لحن أولاد رابية « الموجة» ، تعني الماء ، و«الرشفة» تعني القهوة .

وقد يأتي السيم عبارة عن كلمات تصويرية تستمد مقوماتها من الخيال مثل قول الطبقات الشعبية « باطه والنجم» أي لا يملك شيئًا ، مثل هذا قول الجامعة فى الكتاب المقدس «قبض الريح» ، وتتكرر مثل هذه العبارات المجازية مثل قول ابن رابية «شطوح الموجة» أي وابور البحر و«ناطح الفيح» ، أي ذاهب إلى الريف حيث الفضاء الواسع .

وأحيانا يلجؤون إلى التمثيل والتشبيه فيمثلون شيئًا بشيء ، مثل قول المنجدين «الحبال أفت» كناية عن الجوع ، فالحبال تشبه إلى حد كبير الأمعاء، ، أما «أفت» فاعتقادي أنها من جفت ومرت عندهم بمرحلتين : الأولى نطق الجيم مثل القاف فتصير على للسان «قفت » ، والثانية نطق القاف همزة فتتحول الكلمة إلى «أفت» على نحو ما نقول: «أعد» بمعنى «قعد».

وقد يستوحي اللحن عندهم من أثر الشيء ، ونتيجته مثل قول الطبالين: «تفتافه» أي سيجارة، والسيجارة تهيج الصدر وينتج عنها سعال وبصق.

وقد يأتي السيم تمثيلًا للصوت، يقول اللصوص على «الجوزة» كركر، والكركرة صوت الماء في الجوزة أثناء سحب الدخان ، كذلك هناك نسب بين «مأموأه» والمعزة أو الماعز في لحن القرداتية.

وربما يستوحي اللحن من شكل الشيء أو خصائصه ، فتطلق بعض الطوائف كلمة زمارة على السيجارة ، ويطلق القراداتية «غبار» على الدقيق، و«لفّاف» على «الشال»، ويطلق اللصوص كلمة حبل على الحزام، وغير ذلك، كما أن الحشاشين يفيدون من اللون في سيمهم ، فيطلقون اللون الأسود على الأفيون والأخضر على الحشيش.

وتستوحي بعض الطوائف من الحرف التي تمارسها ألفاظًا تناسب أشياء أو أشخاصا، مثل إطلاق الحدادين كلمة «معوّجة» على المرأة ، والمرأة تميل إلى التثني والتمايل ، وفى حديثها انتقاد إذ لا يعجبها العجب ، كما أن لفظ «معوجة» يناسب الحدادين الذين يقومون المعوج من أعواد الحديد بالتسخين والطرق، وفي قولهم هذا سخرية وتضخيم للعيوب.

وقد يصحفون في الأرقام أو يبدلون في حروفها ، ويجرون عليها تعديلات طفيفة ، ولكن القارئ المتمعن يدرك أصل

الرقم مثل قولي الجواهرجية : خموشة : أي خمسة لو حذفت الواو صارت خمشة ، أصلها خمسة وصحفت ، وشمونيا أي ثمانية، أبدلوا ألف ثمانية واوا، وجعلوا الثاء شينا، وشمونيا وآحاد : أي تسعة، أضافوا واحدًا إلى ثمانية، ويقال: إن معظم سيم الجواهرجية مأخوذ من اللغة العبرية، فلعل هذه الأرقام تنطق هكذا في العبرية ، وهي إحدى اللغات السامية، ومن ألفاظهم مسميات قديمة لأشياء لم تعد تستعمل مثل «شوني» بمعنى مركب ، والشواني أي المراكب، لفظ موجود في كتب التاريخ القديمة.

ودخلت لغتهم كلمات أجنبية، مثل سبرتو أي خمر في لغة المتسولين، وشلن أي جنيه.

ولبعض الكتاب آراء في أصول اللحن يجدر بنا التعرف عليها تتمة للفائدة.

يقول لطفي جمعة: «إن اللصوص مثلا يعبرون تعبيرات توافق أفكارهم، فهم يسمون النعل ثورا لأنهم انتقلوا من الشيء إلى مصدره، وهو الجلد، وانتقلوا من الجلد إلى مصدره وهو الثور، ويسمون الثياب نعجة منتقلين من الثوب إلى الصوف ومن الصوف إلى النعجة وهكذا، وإذا تعذر على

الجماعة اختراع ألفاظ أو البحث عن ألفاظ فإنهم يجدون طريقة سهلة وهي إدخال بعض الحروف بين مقاطع الكلمة مثل: «رج»، فيقال: «أكترجب» بدل «اكتب» و«قارجبلني» بدل «قابلني»[1].

وطريقة إدخال حرفين زائدين بين حروف أصلية لها أصل قديم أشار إليه علي بن الدريهم في أرجوزة له: إذ يبين أنه من طرائق كتابة «المترجم» إدخال حرف زائد بين كل حرفين أصليين، فمحمد تكتب هكذا «من حام قد» فالنون والألف والقاف زائدة، وهنا الزيادة مجلوبة لتتويه السامع أو القارئ عن المراد الحقيقي، وكنا ننتظر من لطفي جمعة تحليلًا أكثر لمصطلحات لغة الطوائف ، إلا أن التنظير عنده كان أكثر من التطبيق التحليلي والتفسيري.

(١) وهناك حروف إغفال تضاف إلى حروف الكلمة الأصلية ولا تحتسب لمزيد من التعمية مثل محمد تكتب هكذا « متحكمحدل» ، حيث زادت بعد كل حرف من الحروف غفل لا يحتسب. ويشير ابن وهب إلى إمكانية الترجمة في التعمية (زيادة إغفال + ترجمة) يؤدي إلى التعمية المركبة . راجع كتاب «علم التعمية عند العرب واستخراج المعمي» د. محمد مراياتي بالاشتراك – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

والكاركي في سيم السجناء هو الشخص الذي يسجن لأول مرة، ويقول العقاد عن الكاركي، لعلهم أخذوها من كلمة الكاكي الذي يشبه لونه لون العلامة الموضوعة على لبدة هذه الفئة من فئات المسجونين[1].

والعقاد ليس معنيا بدراسة اللحن وأصوله، ولكنه ذكر هذه الكلمة وغيرها عرضا سريعا أثناء تسطير ذكرياته وهو مسجون.

ويذكر علي عيسى أن أصل اللغات السرية يعود إلى اللغة العبرية أو الفارسية أو التركية أو الهندية، ويرى أن ملاحن الصاغة مشتقة من اللغة العبرية لأن تجارًا يهودًا كانوا مستأثرين بتجارة الذهب، وذلك على ما يدلل ببعض الألفاظ، ورد عليه رابح لطفي جمعة بأن ملاحن الحرفيين على إطلاقها لا ترجع إلى اللغات المذكورة وبين أن بعض مفردات اللغة مستمدة من الحرفة ذاتها ، وضرب له أمثله[2].

ومما لا شك فيه أن علي عيسى تجاوز الصواب، وأقواله فيها مبالغة شديدة ، ولقد بينا أن كثيرًا من ألفاظهم عربية فصيحة إلى آخر ما ذكرناه.

(١) العقاد : «عالم السدود والقيود».

(٢) مجلة المأثورات الشعبية عدد يناير ١٩٩٥.

وكل هذه التفاسير والتحليلات لا تعني أن كل كلمة أو تعبير من كلمات الطوائف الحرفية وتعبيراتهم يمكن ردها إلى أصلها أو الإحاطة بأطوارها، فربما تكون بعض الكلمات محرفة

ومصحفة عن أصل أجنبي، أو أنهم اصطلحوا عليها فيما بينهم أو أن بعضها صدر عن واحد منهم فى مجلس أنس ورددها الآخرون.

أسباب اختراع اللحن:

ولاختراع اللحن أو السيم أسباب كثيرة منها:

▪ ميل جماعة ما إلى التعريض بأناس آخرين دون أن يفطن أحد إلى ذمهم ، فالحشاشون يقولون عن شخص «أبو شنجل» أي: «أو نطجى» ، وعن آخر أنه «خشنى» أي: غشيم ، فيسمع الشخص المذموم ، دون أن يدرك أن ما تناهى إلى سمعه مسبة له .

▪ التعبير عما يجول في نفوسهم بحرية تامة ، ومن هنا يخاطب شخص زميله بما في قلبه بطلاقة ودون حذر وبخاصة إذا كانوا يعملون عند شخص آخر.

وربما كان ذلك لعدم إحراج الشخص المقصود ، فإذا قال صائغ لزميله عن زبون «أشفور» أي : رديء ، فإن ذلك لعدم إحراجه ، كما أن هذه الكلمة عندما يقولها الصائغ لزميله تعني في الوقت نفسه الميل عن هذا الزبون الذى ليس من ورائه نفع .

▪ واللحن يمثل الحماية لأفراد طائفة ، ويوفر لها فرص النجاة، وإتمام الفعل أو عدم إتمامه وفقًا للظروف ، فإذا قال «نشّال» لرفيقه «سوح البيضة لاحسن العم مقطم» فإن هذا يعني اترك الشيء المراد سرقته، لأن صاحبه منتبه، وبهذا يحول بينه وبين إتمام الفعل الذي يعاقب عليه القانون.

▪ وتوفير الأمان مترتب على الزمن الضئيل، والتفاهم بالكلام القليل، واللمح الخاطف، فإذا قال سارق لزميله «اطري» أي: امش، فإن اللفظ المنطوق المكون من أربعة حروف لا يستغرق زمنًا طويلًا ، وفي هذا الجو تفيد العادة والخبرة ، لأن اللص اعتاد أن يسمع هذه الكلمة إذا لاح في الأفق خطر ، وهكذا ينقذ فرد زميله في لمح البصر بكلمة واحدة مع نظرات معبرة يفهمها، كذلك يشيع اللحن في نفس السامع الاطمئنان وإتمام الفعل في زمن، ومثل هذا قول حشاش لآخر: «اشرب ما تخفش» ، يعني : البوليس واكل.

أخلاق الطوائف من الملاحن:

وهذه الملاحن تدل على أخلاق الطوائف المختلفة، ومراتب نفوسهم، وتظهر رغباتهم الحقيقية التي تخفى على الآخرين. وبالرغم من تنوع هذه الجماعات فإن بين معظمها تشابهًا كبيرًا، فالاتجاهات في الغالب واحدة وإن تباينت الصياغات والمصطلحات ، ويمكن من خلال السيم التعرف على ملامحهم وسلائقهم ورغائبهم .

وأهم ما لفت نظرنا في لغاتهم السرية ، ميلهم إلى خداع الشخص الذي يعملون لحسابه، ويظهر ذلك في تخصيص عبارات غامضة معماة تحذر من حضور صاحب العمل، فطائفة المعمار تقول : «عوض جاي» صاحب الشغل وصل، أو «المحز ربص» صاحب العمارة حضر، ويقول القصابون «لف البدري» اسكت عند حضور المعلم، وغيرهم يقولون: «السكينة جاية» أي صاحبة المحل جاءت، وهذه التنبيهات تعني تغيير السلوك والانضباط، وتحسين العمل ولو في زمن وجود صاحبه.

فإذا انصرف صاحب العمل ، أو إذا كان غير منتبه إلى العاملين، حضوا على إهمال العمل ولهم ملاحن في ذلك، تأتي

منهم بعكس ما يمكن أن يفهم من نطقها، مثل قول طائفة المعمار: «اعقده» أي: اهمل الشغل، أو قول البناء: «شد الخيط يا معلم»، أي: عايزين نبني بالراحة شوية شوية.

ولا يعربون فقط عن ضيقهم بصاحب العمل، وإنما يودون في انصرافه وابتعاده عنهم ليعملوا على راحتهم، ويتحدثوا بحرية، فيقول المنجد لزميله «افقه»، أي: ابعده، أو طفشه.

وتظهر في سيم الطوائف الرغبة العارمة في الممارسة الجنسية، وتفكيرهم نشط في هذا المجال، وعباراتهم هابطة إلى مستوى حطيط، فليس في السيم عبارات غزلية رقيقة توجه إلى المرأة، أو كلمات إغراء تحاول أن تستدرجها، وإنما يشتمل لحنهم على ألفاظ يوجهها شخص لآخر ويعبر فيها عن رغبته الفطرية في المرأة أو في طلبها. وهذا راجع إلى التدني الثقافي، والفراغ الذهني، والهبوط النفسي، وانحلال الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه، والحياة الخشنة التي يحيونها، ومن لحنهم الصريح في طلب المرأة قولهم: «بدي الكديانة نحقنها»، والكديانة أي المرأة في سيم القرداتية، وقولهم: «الكدية» «المرأة» بدي «أخربها»، وقولهم: «ستفها»، وقولهم: «حيف»، فكل هذه تعبيرات عن الرغبة في الجنس.

ومعظم الطوائف أطلقت على المرأة اسما وفقا لتصوراتهم لها، فيقولون : «عايقة» ، أي: «قوادة» ، و«عاطلة» رقاصة، «المرأة تاكل» خائنة لزوجها، «السكينة دي نشاره» أي: تلفانة أو خسرانة، كما أن غالبية الطوائف خصصت للمرأة كلمة في لحنها ـ فهي عند الصاغة «برقة» ، وعند الفراشين «شرفة» ، وعند المنجدين «إبرة»

كما أن سيمهم لم يخل من ذكر الأعضاء الجنسية وهذا يدل على مدى اهتمامهم بالجنس والرغبة الجامحة فيه .

والسيم يطلعنا على قدر عقول هؤلاء، وكيفية تفكيرهم في العمل ، وتنظيمهم له . وسيم النشالين الآتي يرينا مراحل تنفيذ عملية سرقة ودقتها ، والوقت المناسب الذي يصدر فيه الأمر. بالانتقال من مرحلة إلى مرحلة حتى يتم العمل .

يقول نشال لزميله :

مخورجة : الأتوبيس مزدحم والعملية مربحة.

امسك إين: ضيق الخناق على الزبون.

امسك باللطى: ضيق الخناق ببطء

امسك الملس أين قبل ما يجدي: ضيق الخناق بسرعة

لهست : هل انتهيت من عملية النشل

جدى: اهرب.

ولحن المتسولين والشحاذين يكشف عن عالمهم المجهول ، فهم يلجؤون إلى من يشوه أجسادهم لإثارة العطف عليهم ، ويطلقون على من يصنع هذا فى سيمهم «الدكتور»، ويقسمون المناطق إلى مناطق «ناعمة» يتسولون فيها لأنها تدر عائدًا كبيرًا، ومناطق «شلف» شبه خالية من الناس ، ينفرون منها لضآلة فوائدها، ويقسمون الناس إلى صنفين «تماخين شداد» أغنياء كرماء عندهم طعام دسم ، وغيرهم بخلاء لا خير فيهم ، ويقسمون المتسولين إلى نوعين « ده مجدى» متسول مبتدئ، «الأروة الكبير» المتسول الغنى الذي استطاع أن يكون ثروة من التسول . وتوجد فى سيمهم ألفاظ مثل: سبرتو و «مكنة» أي «غرزة» دلالة على تعاطيهم المكيفات ، ولأنهم يخشون الشرطة، فإنهم يعينون من يراقب الطرق .

التسول عندهم مهنة وليس لسد الحاجة ، إنهم طائفة في المجتمع يبحثون عن الثروة، ووسيلتهم التسول ، ويثيرون عطف الناس بتشويه خلقتهم ، ويتعاطون «الكيف» ، ويتخفون وراء لحن حتى لا يتفهم الناس لغتهم ، ويراعون في سلوكهم الخبرة والمكان الآهل بالناس والسن ، ومعظمهم ليسوا ممن أخنى عليهم الزمن ونزل بهم القضاء، وإنما طلاب ثروة ومتعة وهذا هو خلقهم .

ويمكن الإفادة من السيم في دراسة نفوس أفراد الطوائف بواسطة الباحثين النفسيين لأن الملاحن تكشف عن العوالم الداخلية المستترة فيهم ، وما يعتمل في بواطن نفوسهم فمما لا ريب فيه أن السيم يبرز انفعالاتهم ، ويوضح إسقاطاتهم ، ويعبر عن خلجاتهم في أحوال مختلفة ، ويكشف عن تصرفاتهم إزاء ما يعرض لهم ، فهناك تعبيرات عن العنف مثل: « اطنيه بتلومه» اطعنه بسكينة أو «خده صدر» اديه بونية ، وغيرها تعبر عن الضيق مثل: «بده البرغل» اطرد الرجل . وأخرى عن الخوف والاضطراب مثل : «تازى منجدى لئينى» العسكري عايز يخدني، أو عن الانسجام والاسترخاء مثل قولهم : «بحبوح» مفرفش . وغير هذا من الكلمات والجمل الدالة على الجشع والترقب والحذر والاستلطاف ، والتكالب على المال .

كما أن سيم الطوائف يعرب عن النزاع بين بعض الطوائف وشخصيات في المجتمع أو هيئات حكومية ، تدل على ذلك تصرفاتهم إزاء أصحاب العمل كما أسلفنا القول ، ورجال الشرطة ، أو الناس الذين يعدون أنفسهم للهجوم عليهم بغرض سلبهم وسرقتهم ، كذلك يظهر اللحن نوع العلاقات فيما بينهم ، فالسلام ليس مستقرا ، فقد ينشأ بين أبناء الطائفة الواحدة خلاف أو نزاع حول المال أو غيره ، ومن هذا قول صائغ لزميله : «لاشتنأل على البنانى ولا أضيعه» أي: إما أقتسم معك المكسب وإما أطفش

الزبون.

ولا يمكن أن نتحدث عن الخصائص النفسية والشخصية لكل فرد في الطائفة الواحدة ، لأن الخصائص النفسية والشخصية تختلف من شخص لآخر، ولكن يمكن القول: إن لغتهم تكشف عن خصائص عامة في طائفة معينة على نحو ما أظهرنا في طائفة المتسولين، كذلك يمكن من خلال السيم الموازنة بين طائفة وأخرى للوقوف على ميولها وسلوكها واتجاهاتها، وقد لاحظنا أن الحمامية (الذين يعملون فى الحمامات) والحشاشين أكثر ميلا إلى الجنس الطبيعي والشاذ، والصيّاغ أكثر انجذابا إلى المال ، والسراقين أكثر حذرا واستعدادا للعنف ..إلى آخره .

والسيم مفيد للقصاصين والروائيين الذين ينتهجون في بدائعهم الفنية ، نهجا واقعيا انتقاديا واجتماعيا . فالشخصيات الشعبية الحرفية التي ترد في القصص والروايات تقدم إلينا من خلال تصرفاتها العادية ، وعلاقاتها الاجتماعية المألوفة والتي يمكن أن تعد مهذبة بالرغم مما يعتريها من سفول .

ولو تمكن القاص من لغة الطوائف ووقف على خفاياها لأمكنه التغلغل في نفوس المنتمين إليها أكثر، واستطاع أن يصفهم ويصورهم بأسلوب أعمق .